

الحداثيون وقراءة النص القرآني - محمد أركون أمودجا -

أ. فتيحة شحات

كلية الآداب و العلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية و آدابها، جامعة ابن خلدون - تيارت - الجزائر

Nado2703@yahoo.com 0772706012

تاريخ النشر: 2020/08/30

تاريخ القبول: 2020/06/22

تاريخ الاستلام: 2020/02/11

الملخص

حاول كثير من المثقفين العرب المتأثرين بالمناهج الغربية في تأويل النصوص إسقاط النظريات المستمدة من التأويلية على النص القرآني، وتجلى ذلك فيما نسميه بالقراءات الحداثية والمعاصرة للقرآن الكريم، التي ترمي إلى استخدام مناهج حديثة غربية في قراءتها للخطاب القرآني باعتباره نصا عاديا، وهو في الحقيقة نص مقدس لا يماثل النصوص البشرية ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تطبق عليه تلك المناهج. ولعل من بين الباحثين الذين اعتمدوا على تلك المناهج الباحث الجزائري محمد أركون في مشروعه الفكري "نقد العقل الإسلامي".

الكلمات المفتاحية: القراءة؛ القارئ؛ الحداثيون، النص القرآني؛ المناهج الحديثة؛ محمد أركون .

Modernists and reading the Quranic text - Muhammad . Arkoun - as a model

Abstract

Many Arab intellectuals affected by Western approaches to interpreting texts attempted to drop the theories derived from interpretation to the Qur'anic text, and this was evident in what we call modern and contemporary readings of the Holy Qur'an, which aim to use modern Western approaches to their reading of the Qur'anic discourse as an ordinary text, which is in fact a sacred text It is not the same as the human texts and in no way can these curricula be applied to him. Perhaps among the researchers who relied on these approaches is the Algerian researcher Mohamed Arkoun in his intellectual project "Critique of the Islamic Reason."

Key words: reading, the reader, modernists, the Quranic text, modern approaches, Muhammad Arkoun.

مقدمة:

اتجه الحداثيون إلى الحضارة الغربية واستعاروا منها عديد المناهج وطبقوها على التراث العربي؛ وبخاصة التراث الإسلامي ممثلا في النص القرآني، تلك المناهج المتعددة والمتشعبة التي لا تنتمي إلى علم واحد ولا إلى مدرسة واحدة ولدت تعددا منهجيا واضحا. فكيف طبق الحداثيون هذه المناهج على التراث العربي؟ وكيف استطاعوا أن يوظفوها على نص القرآن وهي علوم بشرية وجدت في مجال مغاير عن لغة القرآن ومنهج القرآن الكريم؟ وقد برز على الساحة العربية العديد من الباحثين الذين قرؤوا النص القرآني بآليات جديدة انحرفت عن المسار الطبيعي؛ وبخاصة القراءات التي خلعت ثوب القداسة عن النص القرآني ومن تلك القراءات قراءة الباحث الجزائري محمد أركون التي وظف فيها المناهج الحديثة. سنحاول في هذه الورقة البحثية أن نسلط الضوء على قراءات الحداثيين للنص القرآني مركزين على قراءة محمد أركون؛ ستمم الدراسة بعد المقدمة وفق العناصر التالية: تعريف القرآن الكريم، مفهوم القراءة، الحداثيون والنص، أهم المبادئ والمقومات الأساسية التي ينطلق منها الفكر الحداثي؛ ثم الحديث عن مشروع محمد أركون الفكري.

1- تعريف القرآن الكريم:

1-1- لغة:

لقد اختلف أهل العلم والبيان في بيان طبيعة النص القرآني من حيث اللغة والاشتقاق، فذهب بعضهم ومنهم اللحياني «إلى أنه مصدر مرادف للقراءة، استنادا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [سورة القيامة، الآية: 17-18] و بذلك فإن القرآن مهموز أصلا فهو يقرأ بالهمز، و ذهب آخرون إلى أنه مأخوذ من القرء بفتح القاف، و هو يعني الجمع. كأن نقول: قرأ الماء في الحوض أي جمعه فيه، و منه كلمة القرية و هي الموضع من الأرض الذي يجتمع فيه فريق من الناس، و قيل إنه مشتق من الاقتران لأن آياته و سوره مقترن بعضها ببعض اقترانا وثيقا يتجلى فيه التماسك و التلاحم»¹.

1-2- اصطلاحا:

فهو «الكلام المنزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم - المكتوب في المصاحف المنقول إلينا نقلا متواترا»².

¹ أمير عبد العزيز، دراسات في علوم القرآن، دار الشهاب، ط2، 1988، ص09.

² الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ت: شعبان محمد إسماعيل، دار السلام، ط1، 1998، مج1، ص119.

فهذا التعريف الاصطلاحي للقرآن الكريم يتضمن دلالات عديدة لعل من أهمها:

1. إنّ القرآن الكريم هو كلام الله المنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم- و ما على الرسول إلا البيان و التبليغ.
2. إنّ كلام عربي، فليس فيه إلا اللغة العربية، و إن وجد فيه كلمات ظاهرها غير عربي؛ فقد قال العلماء إنّها معربة أي منقولة إلى العربية أو أنّها توافق اللغتين.
3. إنّ القرآن الكريم متعبد بتلاوته، بمعنى أن مجرد تلاوته فيها ثواب من الله تعالى.
4. إنّ القرآن الكريم متواتر: أي أنه نقل إلينا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم- بالتواتر، أي نقلته الجموع الغفيرة من مثلها من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى يومنا هذا بحيث لا يمكن أن تتفق هذه الجموع على الكذب.
5. القرآن الكريم، كلام معجز بألفاظه، و معانيه، فقد عجز العرب عن الإتيان بمثله أو بمثل سورة منه، على الرغم من شهرتهم بالبلاغة، و الفصاحة، و البيان، و هذا كلّ يدل على أنّ الكتاب يدل بوضوح على أنه تنزيل من رب العالمين، و ما ينبغي له أن يكون كلام البشر، و أنه نصّ غير قابل للتغيير، أو الزيادة، و النقصان، فهو بذلك «كلام الله المعجز للخلق في أسلوبه و نظمه، و في علومه، و حكمه، و في تأثير هدايته و في كشفه الحجب عن الغيوب الماضية، و المستقبلية، و في كل باب من هذه الأبواب للإعجاز فصول، و في كل فصل منها فروع ترجع إلى أصول، و قد تحدّى محمد -صلى الله عليه وسلم- النبيّ العربي الأُمّي العرب بإعجازه، و حكى لهم عن ربه القطع بعجزهم عن الإتيان بسورة من مثله، فظهر عجزهم على شدة حرص بلغاتهم على إبطال دعوته و اجتثاث نبتته، و نقل جميع المسلمين هذا التحدي إلى جميع الأمم فظهر عجزها أيضا»¹

2- مفهوم القراءة:

2-1- لغة:

ورد مصطلح القراءة بمعان كثيرة تنوعت بتنوع الاستعمال؛ فهي عملية معرفية تقوم على فكّ الحروف و الرموز وصولاً إلى مرحلة الفهم يقول ابن منظور: « قرأت الشيء قرآنا بمعنى جمعته و ضممت بعضه إلى بعض، و منه قولهم ما قرأت هذه الناقة سلى قط، و ما قرأت جنينا قط أي لم يفطم رحمها على ولد، قال: و فيه قول آخر لم تقرأ جنينا أي لم تلقه»²

و القراءة بمعنى: « التبيين و ذلك في تفسير ابن عباس رضي الله عنه للآية الكريمة فإذا قرأناه فاتبع قرآنه يقول: فإذا بيناه لك بالقراءة فاعمل بما بيناه لك»³.

وينقل ابن منظور في اللسان عن الفراء (ت207هـ) يقال: « رجل قارئ وامرأة قرّاءة، وتقرأ: تفقه... وقال بعضهم: قرأت: تفقّهت»⁴.

¹ مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الأرقم، د.ط، د.ت، ص14.

² ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد (711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1993، ج1، ص128.

³ المصدر نفسه، ص130.

⁴ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد (711هـ)، لسان العرب، ص219.

«قرأ الكتاب: يقرأه، قراءة، قرآنا: تبع كلماته نظرا ونطق بها، وتبع كلماته ولم ينطق بها؛ وسميت حديثا بالقراءة الصامتة، وقرأ الآية من القرآن نطق بألفاظها عن نظر أو عن حفظ»¹.

2-2- اصطلاحا :

يرد لفظ القراءة في الاصطلاح وفق السياقات، و مقامات الكلام فالقراءة هي: « تلك العملية التي تبرز معنى ما من معاني النص بواسطة عدد من المفاهيم؛ و بناء على اختيار مستوى معين يتم اختراق النص على أساسه؛ لا يعمل قارئ النص كلاقط سلمي للرسالة؛ و إنما يشارك الكاتب في انتاج النص من جهة ربط المعاني بعضها ببعض، و تبيان أثرها العام و الخاص»².

كما وردت أيضا في قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر بمعنى التفسير؛ أو الشرح للعلامات والرموز النصية وهي: «مفهوم يشير إلى تغيير الإشارات النصية باعتبارها عناصر رمزية معبرة عن النص؛ وعن الحضارة التي نشأ أو ظهر فيها النص وهذا المفهوم شائع في بحوث، ودراسات النقاد الذين يعتمدون في أعمالهم على نظرية التلقي والقراءة المفتوحة»³.

3- الحدائون والنص: لا يمكن الحديث عن تلقي القرآن الكريم في مناهج النقد المعاصر دون الحديث عن الحدائون والتي كانت نقطة بدء لكل أشكال القراءة المعاصرة للنص القرآني.

3-1- الحدائون لغة:

«هي مصدر فعل حدث، يحدث والحديث نقيض القديم، والحدوث نقيض المقدمة، حدث الشيء يحدث حدوثا حدثا»⁴

3-2- اصطلاحا:

فهو مصطلح يحمل أبعادا فلسفية وإيديولوجية .

لم يستقر الدارسون على تحديد واضح لمفهوم الحدائون؛ فهو مصطلح فضفاض مترامي الدلالة يحيل إلى كل ما هو حديث وجديد، وقد اعتري هذا المصطلح نوع من اللاتحديد لأنه يشمل مجالات عديدة، و المهم أنّ الحدائون جاءت بمشروعها الحضاري « لِتُخَلِّصَ الْإِنْسَانَ مِنْ أَوْهَامِهِ؛ وَ تَحْرِرَهُ مِنْ قَبُودِهِ؛ وَ تَفَسِّرَ الْكُونَ تَفْسِيرًا عَقْلَانِيًّا ذَاتِيًّا، وَرَأَتْ الْهَدَايَةَ أَنَّ مِثْلَ هَذَا الْمَشْرُوعِ لَا يَتِمُّ مَا لَمْ يَقْطَعْ الْإِنْسَانُ صِلَتَهُ بِالْمَاضِي؛ وَ يَهْتَمُّ بِاللَّحْظَةِ الرَّاهِنَةِ الْعَابِرَةِ أَيْ بِالتَّجْرِبَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، كَمَا هِيَ فِي لَحْظَتِهَا

¹ مجمع اللغة العربية (إشراف: شوقي ضيف)، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، 2004، ص722.

² رشيد بن مالك، مصطلحات التحليل السيميائي للنص "عربي، انجليزي، فرنسي"، دار الحكمة، الجزائر، د.ط، 2000، ص96.

³ حجازي سمير سعيد، قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، دار الأفاق العربية بيروت، لبنان، ط1، 2001، ص66.

⁴ ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص796.

الآنية؛ وهكذا احتفت الحداثة بالصيرورة المستمرة المتشكلة أبداً؛ وغير المستقرة على حال، لكنها أيضاً كانت تسعى في المقابل إلى إرساء الثوابت القارّة التي تحكم الإنسان؛ وتحكم تجربته كما تحكم الصيرورة الثقافية فتفسّر المتغيرات العابرة؛ وتمنح مشروعية تبريرية عقلانية لحالة الفوضى التي تتسم بها التجربة الآنية، من هنا جاء التقابل الضدي بين الثابت؛ والمتحول كإمكانية تفسير التناقض الواضح بين اللحظة العابرة؛ والقانون الثابت الذي يتحكم بها، ويمنحها نظاماً مستقراً أبدياً¹. يمكن القول أنّ الحداثة تركز على فكرتين أساسيتين هما: فكرة الثورة ضد التقليد؛ وفكرة مركزية العقل.

3-3- أهمّ المبادئ والمقومات الأساسية التي ينطلق منها الفكر الحداثي:

«أ- الحرية: لا بدّ أن تكون مطلقة في حرية التفكير، حرية التعبير، حرية البحث.

ب- العلمانية: من مرتكزات الحداثة هي الدعوة إلى التحرر الفكري؛ والثورة على الكنيسة؛ ورجال الدين.

ج- العقلانية: اعتبار العقل أداة للحكم على كلّ شيء، فكلّ ما يوافق العقل يقبل وكلّ ما يعارضه يرفض.²

فنتج عن الحداثة مجموعة من القراءات التي راحت تنقب في التراث القديم لتهدمه وتحاول بناءه من جديد، مركزة على الخطاب الإسلامي من خلال تأويله من جديد ليواكب حركة العلم والعقل معاً، « فإذا أردنا البحث عن بداية المشروعات الفكرية الحديثة في قراءة النصّ فسنعود إلى لحظة الاحتكاك بالحضارة الغربية، ففي أواخر القرن التاسع عشر؛ وبداية القرن العشرين، بدأت محاولات العلماء، والمفكرين لإعادة قراءة التراث؛ وطرح مشروعات فكرية للنهوض بالأمة؛ والانعقاد من أسر الحضارة الغربية؛ فكانت أطروحات محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، ورفاعة الطهطاوي، وقاسم أمين، ومحاولاتهم التوفيق بين النصّ الشرعي؛ وبعض المنتجات الفكرية للحضارة الغربية، وظلت أطروحاتهم في قراءة النصّ الشرعي داخل محيط التداول الإسلامي للنصوص. محتفظة بطريقة الاجتهاد المتعارف عليه في السياق المعرفي الإسلامي³.

ثمّ جاءت موجة أخرى في الخمسينات قرأت النصّ الشرعي بوساطة المناهج الحديثة مثل: أمين الخولي، و محمد أحمد خلف الله، و بعد النكسة العربيّة في الستينات « بدأت الموجة الثالثة إذ اتجهت الجمهرة الكثيرة من المثقفين العرب إلى إعادة قراءة التراث ممّا شكّل ما يشبه الظاهرة، و هو ما دفع جورج طرابيشي إلى تسمية تلك الظاهرة بـ "العصاب الجماعي"⁴.

¹ عبد الله عمر الخطيب، الحداثيون و قراءة النصّ الشرعي، 2012/07/20،

http://www.alrased.net/main/articles.aspx?selected_article_no=5752

² محمد أركون، في الفكر الحداثي، آسيا واعر، مجلة الحقيقة، العدد 43، ص 78.

³ سليمان الضحيان، المناهج الحديثة في قراءة النصّ الشرعي، قراءة نصر أبو زيد أمودجا، 2007/09/29،

<https://vb.tafsir.net/tafsir9648/#.XfE-NehKjIV>

⁴ سليمان الضحيان، المناهج الحديثة في قراءة النصّ الشرعي، قراءة نصر أبو زيد أمودجا.

وعليه فإنّ القراءة المعاصرة هي شيء جديد كلياً، «جديد على مستوى الأدوات والمناهج، إذ يحيلنا مصطلح القراءة إلى اللسانيات الحديثة، واللسانيات هي في المحصلة مناهج، ونظريات تمثل بمجموعها أدوات بحث، يضاف إلى هذه الأدوات تصوّر جديد للعالم، ليس هو التصرّو الذي وجد في التفسير العصري؛ بل هو تصوّر راهن متأثر بحصيلة التصرّو العربي وحدائته للعالم كما انتهى إليه اليوم، وتعود بدايات ظهور القراءة المعاصرة إلى الأربعينيات، وقد يكون الفضل للكاتب السوري محمد شحرور سك مصطلح القراءة المعاصرة»¹.

إنّ المتمعّن في الخطاب الحدائي يرى الخلفية العلمانية الدافعة للطرح الحدائي من خلال عدة نقاط رئيسة أهمها:

- **موقف الحدائين من الدين والأخلاق:** «الفكر الحدائي يستبعد كون الدين؛ والأخلاق؛ والإيمان محركاً للتاريخ بل تعتبر التاريخ محكوماً بدوافع غريزية ذات بعد سياسي مادّي؛ والخطاب الديني والأخلاقي مجرد غطاء فوقيّ لإخفاء الدوافع الحقيقية للأحداث. لقد حاولت القراءات الحدائية للنص قطع الصلّة بكل ما هو ماضٍ مغلبة العقل على ما سواه هذا مانجده عند عبد المجيد شرفي عندما صرّح بإخفاق جميع المحاولات التفسيرية للقرآن في إطار القداسة»²
- **تطبيق التقنيات المعاصرة على النصوص:** يفسّر الحدائيون جميع المظاهر السياسية؛ والاجتماعية؛ والدينية بتطبيق آليات المناهج الحديثة كالمناهج التفكيكية؛ والألسني... «والمحصلة النهائية للنص كما تبلور في الغرب على يد مدارسه الفكرية تقوم على نزع القداسة عن جميع النصوص دينية كانت أو غير دينية، ثمّ إعمال التسوية بينها وإخضاعها لبعض العمليات اللغوية الشكلية الآلية التي تلغي حتى وجود المعنى العلماني في النص، ومن ثمّ يمكن أن يفسر النصّ بالشيء ونقيضه؛ ولا يكون هناك أيّ تفسير ملزماً باعتبار أنّ عملية التأويل عملية بشرية يقوم بها القارئ للنص وفق آلياته، ومعتقداته؛ فالنص عند السلفي إطار، ومرجع، وعند العلماني غطاء، وسند كما يقرّر نصر أبوزيد»³. حيث ينطلق في دراسته حول مفهوم النص وعلم

¹ صليحة بن عاشور، الخطاب القرآني والمناهج الحديثة في تحليله - دراسة نقدية-، جامعة ورقلة الجزائر، أشغال الملتقى الدولي الثالث في تحليل الخطاب جامعة قاصدي مرباح ورقلة، ص 222.

² ينظر محمد بن ابراهيم السعيد، القراءة الحدائية للتراث الخلفيات والمنزقات، سلف للبحوث والدراسات، مقال 119.

<https://twitter.com/salafcenter/status/922759111611215872>

³ المرجع نفسه.

القرآن من كون النصّ القرآني نصّاً لغويّاً أنتج في ظروف معيّنة؛ فهو منتج ثقافي. فالقرآن عنده تشكّل في بيئة ثقافية، وفي فترة زمنية محدّدة لذلك يجب فهم معانيه بواسطة المنهج اللغوي، والنصّ القرآني عنده حتى وإن كان نصّاً مقدساً؛ لا يخرج عن كونه نصّاً يجب إخضاعه لقواعد النّقد الأدبيّ مثله مثل باقي النّصوص الأدبيّة. حيث كانت جلّ الدراسات التي قام بها تصب في هذا الاتجاه وهي تدعو إلى إعادة فهم القرآن بطريقة جديدة، تجلّي ذلك في كتبه العديدة مثل: مفهوم النص دراسة في علوم القرآن. إشكالية القراءة وآلية التأويل. السلطة والنص والحقيقة، الاتجاه العقلي في التفسير دراسة في قضية المجاز عند المعتزلة، نقد الخطاب الديني.

4- محمد أركون والنص القرآني:

ظهر في العصر الحديث مجموعة من الباحثين الذين حاولوا وضع الأسس النظرية لتحليل الخطاب القرآني، موظفين المناهج الحديثة في ذلك كاللسانيات، والسيميائيات، والبنوية، والتفكيكية.... ومن أبرز هؤلاء الباحثين الذين دعوا إلى تطبيق تلك المناهج محمد أركون (2010/1928).

محمد أركون الباحث؛ والمؤرخ؛ والمفكر الجزائري ولد في 1/فبراير/1928 في بلدة تاويرت ميمون الأمازيغية بالجزائر، وانتقل مع عائلته إلى بلدة عين الأربعاء (ولاية عين تموشنت)، حيث درس دراسته الابتدائية بها، ثمّ واصل دراسته الثانوية في وهران لدى الآباء البيض، ثمّ درس الأدب العربي؛ والقانون؛ والفلسفة؛ والجغرافيا بجامعة الجزائر، ثمّ بتدخل من المستشرق الفرنسي لوي ماسينيون قام بإعداد التبريز في اللغة والآداب العربيّة في جامعة السوربون في باريس، ثمّ اهتمّ بفكر المؤرخ والفيلسوف ابن مسكويه الذي كان موضوع أطروحته.

يقدم محمد أركون مشروعه الفكريّ للعرب وللعالم، ويحاول أن يجعله مختلفاً عن المشاريع الفكرية الأخرى عند بعض العلماء أمثال محمد شحرور، حسن حنفي، علي حرب.... فكانت بداية مشروعه الفكري منذ 1970 ولكن قدّمه للعالم سنة 1984 في صورة كتاب.

من أهم كتب الدكتور محمد أركون: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، والذي يعتبر من أهم مؤلفاته في الدراسات القرآنية. الفكر الإسلامي نقد واجتهاد. الفكر الإسلامي قراءة علمية.

صنّف محمّد أركون التراث الإسلاميّ في دائرة الّلامفكر فيه، فهو يرى أنّ التّراث قد سار على وتيرة واحدة لقرون عديدة ولم يطرأ عليه أيّ تجديد فأصبح ممّا لم يفكر فيه، لذلك فقد آن الأوان أن نتدبر هذا التراث ليصبح مفكراً فيه، ولا يكون ذلك إلّا بإرساء مشروع فكره الحدائني.

يقول محمد أركون في كتابه القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني: «نلتمس هنا طفرة معرفية في تحليل الخطاب الديني عامة وهذه الطفرة لاتمس العقيدة في محتواها؛ وممارستها، وإنما تحيلها إلى مستوى أوسع؛ ومنظومة معرفية أكثر تفتحاً؛ وأشمل إحاطة بما أضافته الحدائني العلمية من نظريات؛ وشروح؛ وتأويلات؛ واكتشافات؛ ووسائل إحقاق الحق والحقيقة أقول ذلك لكي لا يسارع القراء المؤمنون إلى رفض القراءات التي أفرحتها للقرآن لأنها خارج إطار ما أسميته بالتفسير

الموروث؛ وهناك من يكفر هذه القراءات بناء لا على مافهمه واجتهد من إدراك مقاصد المؤلف؛ ولكن على أساس ماعاب عن فكره؛ ومعلوماته إذا كان لم يكتشف بعد تعاليم اللسانيات؛ والسيميائيات؛ والأنثروبولوجيا؛ والسوسولوجيا الدينية والثقافية؛ وعلم النفس التاريخي»¹.

يحاول أركون إذن تبرير ما دعا إليه من تحليل الخطاب الديني بمنظور الحداثة؛ ماجعله يعلل لما قد تعترضه قراءته للقرآن الكريم من رفض ناتج عن قصورهم ومعرفتهم بمناهج النقد الحديثة.

يرفض أركون تسمية القرآن الكريم «ويؤوضها بالظاهرة القرآنية لأن كلمة قرآن مثقلة بالشحنات والمضامين اللاهوتية والطقوس الشعائرية؛ ولأنها تقف عائقاً أمام المراجعة النقدية الجذرية للتراث الإسلامي فهو يتحدث عن الظاهرة القرآنية كما يتحدث عن الظاهرة العلمية؛ والاجتماعية؛ ويهدف من وراء ذلك إلى وضع كل التركيبات العقائدية الإسلامية وكل التحديثات اللاهوتية؛ والتشريعية؛ والأدبية؛ والبلاغية؛ والتفسيرية على مسافة نقدية كافية كباحث علمي»²

جعل محمد أركون القرآن الكريم نصاً عادياً قابلاً للقراءة النقدية، حتى إنه خلع عنه ثوب تسميته بالقرآن الكريم، واستبدله بالظاهرة القرآنية ليدخله في مصاف التصوص البشرية العادية، ويبيعه عن كل ما هو عقائدي إسلامي أو لاهوتي كما يرى بحجة رؤيته القرآن نصاً علمياً. وما هذا في نظرنا إلا مسوغ لتمرير مشروع الفكر العلماني الذي يريد من ورائه نزع القداسة عن النص القرآني، وذلك عن طريق النقد الحر. والانتقاص من مرجعية كتب التراث التفسيرية، والتبعية العمياء لنظريات ومناهج النقد الغربية.

يحاول أركون حصر القراءات المهمة بقراءة النص القرآني وتفسيره في التراث القديم، والبحث عن أوجه القصور فيها، ثم استبدالها بقراءات جديدة توائم آراءه النقدية الغربية الخالصة. محاولاً إسقاط النظريات الحديثة على التراث العربي، وعلى وجه الخصوص القرآن الكريم؛ «وذلك لأنها مستوفية للمعايير والشروط العلمية بحسب ما يذهب إليه؛ وهي منهجيات؛ أو قراءات أو مقاربات واضحة على ما جاء ذكرها لديه، وتمتثل في ثلاثة أساسية وهي: القراءة اللاهوتية "التفسير الإيماني"، القراءة التاريخية "الأنثروبولوجية"، القراءة الألسنية السيميائية»³

أ- القراءة اللاهوتية:

يقصد بها إعادة النظر في كل ما يتعلق بالفكر الإسلامي، وبالنص القرآني فهما وتفسيرها، وعليه فإن: «التفسير الإيماني للقرآن منغلِق داخل سياق دوغمائي مطلق، وهو مجمل العقائد؛ والأعقائد أن يشتغل بمنأى عن كل تدخل نقدي، سواء من الداخل أو من الخارج؛ أو مما تفرضه الأرثوذكسية الإسلامية على الدراسات القرآنية، وتمنع الاقتراب منها أكثر مما يجب»⁴

¹ أركون محمد، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، دار الطليعة، بيروت، مج1، ص7.

² اليوسفي محمد، في القراءة الحداثية للنص القرآني وقضاياها، مجموعة مواقع مداد، 2017. <http://midad.com/article/220666/>

³ الطاوس اغضابنة، قراءات الخطاب القرآني عند محمد أركون، مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، العدد الخامس، جوان 2012، ص22.

⁴ ينظر رزايقية محمود، الخطاب القرآني - قراءة في المشروع الفكري لمحمد أركون - مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، جامعة وهران 2، العدد التاسع، 2009، ص446.

ب- القراءة التاريخية الأنثروبولوجية:

ترتكز القراءة التاريخية للخطاب القرآني عند أركون على منهج التّقد التاريخي، فهي قراءة تعتمد على نوع من الاجتهاد في التعامل مع النص إذ يميز أركون بين الوحي؛ والتّدوين، وبين الشفوي؛ والكتابي. ويعتبر فترة الوحي ملغاة من القنعة الإسلامية الآن بسبب تدوين المصحف، لأنّ المصحف نصّ بينما القرآن كلام من وجهة نظره هو. «من الأهداف البعيدة للقراءة التاريخية للخطاب القرآني هي نزع التّقدّيس عن القرآن الكريم، أي أن يخلع القدسية عن الزمان والمكان، وعن الكائنات وعن الأشياء المادية. وعن كل التصرفات وفي نظر أركون أنّ مجموعة الشعائر؛ والطقوس؛ والتّلاعبات الفكرية الاستدلالية، جميعها شاركت في إضفاء القدسية على الخطاب القرآني، ويتصور أنّ التّقدّيس كان مع القرآن حينما كان في أمّ الكتاب، أما الآن فالقرآن هو مجرد كتاب لأنه انتقل من الشفاهي إلى الكتابي، وما إخضاع الخطاب القرآني للقراءة التاريخية إلا دليل على نفي القداسة»¹

ج- القراءة الألسنية والسيميائية:

هذه القراءة تهدف إلى قراءة القرآن كأبيّ كتاب عادي، فالسيميائيات تنطلق من دراسة الحكاية الشّعبية ممّا يجعل تطبيقها على النصّ القرآني فيه الكثير من المغامرة. فكيف لمنهج طّبّق على الخرافة والحكايات الشّعبية أن يطبّق على نصوص القرآن الكريم؟، هذا ما يخلق عندنا نوعاً من الممارسة التّقدّية الجائرة، لذلك فإنّ تطبيق المنهج الألسني السيميائي يهدف إلى الوصول إلى تاريخية النصّ الشّرعي.

وعلى ذلك فهو يرى «أنّ هناك ثلاثة بروتوكولات متداخلة أو متفاعلة لقراءة القرآن كنص ضمن المنظور الجديد للعقل الاستطلاعي المستقبلي "القراءة التاريخية الأنثروبولوجية، القراءة الألسنية السيميائية، القراءة اللاهوتية التفسيرية ومن التّاحية المنهجية يجب القول بأنّ القراءة اللاهوتية التفسيرية لا ينبغي أن تحصل إلا بعد إجراء القراءتين الأوليتين وبناء على الأسس التّقدّية الجديدة المستخلصة من قبلهما. «² لذلك فالقراءة اللاهوتية التفسيرية هي محصّلة قراءتين هما القراءة التاريخية الأنثروبولوجية، والقراءة الألسنية السيميائية. فتعدّ هاتان القراءتان ثانويتين، بينما نجد القراءة الأخيرة أساسية و«الحقيقة أنّ هذا التّمييز بين قراءات أساسية وأخرى تابعة ولكن لازمة هو مجرد تمييز ذاتي من أجل محاولة توضيح التّحليل في حين هي عند محمد أركون قراءات مترابطة ولا تقلّ إحداها عن الأخرى أهميّة. وكلّها ضرورية ولازمة وكلّ ذلك هو أمر واضح كما جاء عنده؛ ولكن تنشأ الحيرة عند محاولة وضعها بحسب سلّم التّرتيب، فأيّها تكون الأولى في الدّراسة المنهجية؛ وأيها تكون التّالية؟ كما وأنّها متّصلة ومتداخلة ببعضها البعض وليست منفصلة ممّا يصعب معه وضع كلّ واحدة منها بشكل مستقلّ تماماً عن الأخرى. «³

¹ ينظر رزايقية محمود، الخطاب القرآني - قراءة في المشروع الفكري لمحمد أركون، ص 447.

² يوسف ولد النبية، المنهج اللساني في تحليل الخطاب القرآني عند محمد أركون - قراءة نقدية -، مجلة الممارسات اللغوية، العدد 41، ص 62.

³ الطاوس اغضابنة، قراءات الخطاب القرآني عند محمد أركون، مجلة أنسنة للبحوث والدّراسات، العدد الخامس، ص 22.

وفي هذا السياق « ذهب الدكتور سليمان عشاري إلى أنّ المقاربات العقلانية للنص القرآني التي يقوم بها الأستاذ أركون تجرّده في الواقع من سمة القداسة لتجعل منه مادة تنقيب واستكشاف مفتوحة على مختلف المناهج بما فيها المناهج ذات المنزح الوضعي المادّي، ولم يسلم هو أيضا من قراءة النص القرآني في ضوء المنجزات التقديّة والتحليلية الأدبيّة المعاصرة؛ ومن خلال الأحكام التّقويميّة الكتابية بالرغم من تحفظه حيال المجازفات التطبيقية، التي قد تستهدف تناول القرآن بمفاتيح نقدية هي بعد تجريبية»¹

فالنص عند محمد أركون يغدو «ممارسة خطابية *pratique discursive* خاضعة لآليات التأويل القائمة على التفكير *deconstruction* ممارسة استلهمها أركون من فلاسفة الحدائثة؛ وما بعد الحدائثة الأوربية ولم يجد أيّ حرج في التعامل مع هذه الآليّة، بل يصرّ على إعمالها ويدعوننا لأجل فهم النصّ الدّيني من خلالها لأنّها الضامن الوحيد للفهم الموضوعي المنفلت من قبضة الإسلاميات الكلاسيكية الاستشراقية *orientalisme* التي تحاول حرمان العقل الإسلامي من قراءة النصّ القرآني، وهو يشحذ مناهجه من العلوم الإنسانية الغربيّة المنبع.»²

إنّ اعتماد محمد أركون على المناهج الحدائثة الألسنية؛ والتفكيكية؛ وكذا على علم الأنثروبولوجيا، أدخله في متاهة الأحكام الجريئة، فهو يرى أنّ الخطاب القرآني «لم يكن مكتوبا في البداية، وإتّما كان كلاما شفهيّا؛ أو عبارات لغوية شفوية تنبثق على هوى المناسبات؛ والظروف المتغيرة، وقد استمر ذلك عشرين سنة» ويقول عن عملية انتقال الكلام من الشفهي إلى الكتابي: «وفي أثناء الانتقال من التراث الشفهي إلى التراث الكتابي تضيع أشياء؛ أو تحوّر أشياء؛ أو تضاف بعض الأشياء، لأنّ كلّ ذلك يعتمد على الذاكرة البشرية.»³

ومّا يلاحظ على مقارنة أركون اللسانية للخطاب القرآني «أنّه يمزج بين بعض منجزات التراث، كاستشهاده ببعض أقوال الرّازي في تفسيره، فضلا عن توظيفه لمصطلحات نحوية عربيّة؛ والمنجزات الغربيّة اللسانية والتقديّة؛ من خلال استخدامه لمصطلحاتها؛ وأدواتها الإجرائية، مثل: المنطوقة، العبارة اللّغوية، وحدة سردية (الآية)، المدونة النصية (القرآن)، النصّ الرسمي الناجز (المصحف)، مؤلف النصّ، وهوية المؤلّف (الله).»⁴

ومن أهمّ التّمادج التي طبّق عليها أركون التحليل اللّساني سورة الفاتحة؛ وهو تحليل يهدف إلى تبيان القيم اللّغوية المحضة للنصّ دون تفضيل أيّ مدرسة ألسنية على أخرى، على اعتبار أنّ المدارس اللّسانية في طور التشكّل والبلورة وقد وجدنا أركون يستلهم تحليله اللّساني من علماء اللّسانيات وتحليل الخطاب، مثل تودوروف *todorove* وديكرو *ducrot* وبنفنيست *benveniste* وغيرهم. ويرى أركون «أنّ العناصر اللّغوية التي يدعوها بصائغات الخطاب أو مشكّلاته التي تصوغه على هيئة

¹ يوسف ولد النبيرة، المنهج اللساني في تحليل الخطاب القرآني عند محمد أركون قراءة نقدية، ص 65.

² عبد القادر بودومة، النص وآليات القراءة - محمد أركون، نصر حامد أبوزيد، - مجلة إنسانيات، 2000/11.

³ ينظر محمود رزايقية، الخطاب القرآني - قراءة في المشروع الفكريّ لمحمد أركون -، ص 445.

⁴ يوسف ولد النبيرة، المنهج اللساني في تحليل الخطاب القرآني عند محمد أركون، ص 66.

معينة، يمكن تحديدها في : المحددات أو المعرفات والضمائر والأفعال والأسماء والبنىات التحوية والنظم والإيقاع، ومن ثمّة يمكن دراسة هذه العناصر في سورة الفاتحة من منظور لساني¹.

إنّ القضايا التي أثارها محمد أركون ليست من القضايا الجديدة على الساحة الفكرية، وإنما هي قضايا أثّرت وبشكل كبير في الدراسات القرآنية وبخاصة عند المستشرقين. والعديد من الباحثين العرب المتأثرين بالمناهج التقديرية الغربية، إلا أنّه يمكن القول بأن دراسة محمد أركون دراسة تفتقر إلى الدلائل؛ والبراهين؛ وفي مجالها التطبيقي تتسم بالقصور كما أنّ القراءة اللسانية التي اتّخذها محمد أركون تجعل من النصّ القرآني نصّاً عادياً مثله مثل باقي النصوص البشرية، فهي قراءة موجهة للنصوص الإنسانية؛ ولا يمكن تطبيقها على النصّ الإلهي، لأنّها قراءة تؤدّي إلى انفلات كبير في التأويل؛ وتعيد عن المقاصد باستخدامها للعقل.

إنّ المناهج المتعدّدة التي صرّح أركون بأن يطبقها «التحليل الألسني والتحليل السيميائي الدلالي والتحليل التاريخي والتحليل السوسولوجي والتحليل الأنثروبولوجي والتحليل الفلسفي لفسح المجال لولادة فكر تأويلي جديد للظاهرة الدّينية»².

خاتمة:

في ختام هذه الورقة البحثية يمكننا أن نوجز أهم النقاط المستخلصة فيما يلي:

- تنطلق القراءة الحداثية للنصّ الشرعي من مضامين الحداثة الغربية وأسسها وجعلها النموذج الأمثل لقراءة النصوص.
- تسعى القراءة الحداثية إلى إلحاق الفكر الإسلامي (التراث الإسلامي) بهذه الحداثة، وذلك بتوظيف المناهج الحديثة لإعادة قراءة النصّ القرآني.
- من نتائج القراءة الحداثية جعل القرآن يفتح على احتمالات متعدّدة وتأويلات لامتناهية.
- فصل النصّ القرآني عن مصدره الإلهي وربطه بالقارئ الإنساني.
- يُعرّف القرآن عند أركون بكونه خطاباً شفهيّاً، ويفرّق بينه وبين القرآن المدوّن في المصحف، ذلك لأنّ عمليّة الانتقال - كما يرى - من الشفهيّ إلى المدوّن في المصحف عرفت عدداً من الظروف والملابسات التي تجعل من عمليّة الجمع نسبية ومشوبة بالحذف والخلط.
- يهدف محمد أركون من خلال اعتماده على المنهج التفكيكي في تعامله مع الفكر الإسلامي إلى تأسيس عقل استطلاعي مستقبلي ينتهي إلى زعزعة المنظومة المعرفية التوحيدية.

¹ المرجع نفسه، ص 63.

² محمد أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، ترجمة: هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، المركز الثقافي العربي، ط2، 1996، بيروت، ص 91.

قائمة المصادر و المراجع

- 01- المصحف الشريف برواية ورش بن نافع.
- 02- أمير عبد العزيز، دراسات في علوم القرآن، دار الشهاب، ط2، 1988 .
- 03- الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ت: شعبان محمد إسماعيل، دار السلام، مج1، ط1، 1998.
- 04- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الأرقم، د.ط، د.ت.
- 05- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد (711هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج1، ط3، 1993.
- 06- رشيد بن مالك، مصطلحات التحليل السيميائي للنص "عربي، إنجليزي، فرنسي"، دار الحكمة، الجزائر، د.ط، 2000.
- 07- حجازي سمير سعيد، قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، دار الأفاق العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2001.
- 08- عبد الله عمر الخطيب، الحدائون و قراءة النص الشرعي، 2012/07/20،
http://www.alrased.net/main/articles.aspx?selected_article_no=5752
- 09- مجمع اللغة العربية (إشراف: شوقي ضيف)، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، 2004.
- 10- محمد أركون، في الفكر الحدائي، آسيا واعر، مجلة الحقيقة، العدد43، ص78.
- 11- سليمان الضحيان، المناهج الحديثة في قراءة النص الشرعي، قراءة نصر أبو زيد أنموذجا، 2007/09/29،
<https://vb.tafsir.net/tafsir9648/#.XfE-NehKjIV>
- 12- محمد أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، دار الطليعة، بيروت، مج1.
- 13- اليوسفي محمد، في القراءة الحدائية للنص القرآني وقضاياها، مجموعة مواقع مداد، 2017، <http://midad.com/article/220666/>.
- 14- الطاوس اغضابنة، قراءات الخطاب القرآني عند محمد أركون، مجلة أنسنة للبحوث والدراسات، العدد الخامس، جوان 2012 .
- 15- رزايقية محمود، الخطاب القرآني - قراءة في المشروع الفكري لمحمد أركون - مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، جامعة وهران 2، العدد التاسع، 2019.
- 16- يوسف ولد النبية، المنهج اللساني في تحليل الخطاب القرآني عند محمد أركون - قراءة نقدية -، مجلة الممارسات اللغوية، العدد41.
- 17- عبد القادر بودومة، النص وآليات القراءة محمد أركون، نصر حامد أبوزيد، مجلة إنسانيات 2000/11.
- 18- محمد أركون، الفكر الإسلامي قراءة علمية، ترجمة: هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط2، 1996.